جامعة القادسية
كلية الآداب
قسم علم الاجتماع

الأساسات الأدبية (الاكاديمية) للمادية الثقافية

المدرس / حيدر علي حسن
الجامعة المستنصرية/كلية الآداب/قسم الانثروبولوجيا والاجتماع
hayderali772@yahoo.com

المقدمة

إن تطور الحياة وتنوعها وثرائها يعني ازدياد طرق الوصول الى الحقائق، وعلى سبيل المثال لا الحصر، كان لدى الاغريق اكثر من فيلسوف وفلسفة في حقبة زمنية واحدة، وبذلك برز اكثر من منهج فلسفي في التفكير، وكانت الغاية الأساس تقصي الحقائق التي عدوها تعبيرًا أمينًا عن افكارهم، وفي الوقت نفسه، عبرت عن رؤية الفيلسوف وتصوراته العقلية، ويتضح على وفق ما تقدم ان تعددية المناهج واختلاف طرائقها لا يلغي باي حال من الاحوال طبيعة الحقائق، وإنما يزيدها وضوحًا وتنوعًا ويكشف عن زوايا مختلفة لرؤية الحقيقة.

يسعى النهج الأنثروبولوجي إلى الإجابة على التساؤلات الآخذة في الاتساع "لماذا يفعل الناس ما يفعلون؟" وهذه هي الطريقة التي يسير بها علماء الأنثروبولوجيا للإجابة على هذا التساؤل من أجل الكشف على اوجه التشابه والإختلاف الثقافي.

يتعامل هذا البحث مع أهم الآراء والأفكار والتصورات التي كانت سببًا أو عاملًا أساسيًا في تبلور توجه المادية الثقافية كإتجاه فكري يركز على قضية الإنتاج الأساسي وتوسع من تحليلها للقوة الديناميكية، وعلاقاتها المتشابكة، كما تشرح أوجه التشابه والإختلاف الثقافي وكذلك النماذج للتغيير الثقافي في إطار مجتمعي، التي تُعد إستراتيجية البحث العلمي إذ تعطي الأولوية للعمليات المادية والسلوكية في شرح تطور النظم الاجتماعية الثقافية البشرية.

Abstract

The anthropological approach seeks to answer the ever-expanding questions of "why do people do what they do?" This is how anthropologists go about answering this question in order to uncover cultural similarities and differences.

This research deals with the most important opinions, ideas, and perceptions that were a main cause or factor in the crystallization of the orientation of cultural materialism as an intellectual direction that focuses on the issue of basic production and expands its analysis of dynamic power and its interlocking relationships, as well as explains the similarities and cultural differences as well as the models for cultural change in a societal context, which It is considered a scientific research strategy as it prioritises physical and behavioral processes in explaining the evolution of human sociocultural systems.

اولًا: الأساسات الأدبية (الاكاديمية) للمادية الثقافية

بدأت المادية الثقافية بالتعامل مع الأدب في بريطانيا في أواخر السبعينيات، وارتبطت به أسماء مفكرين ونقّاد من المحسوبين على اليسار الأمريكي الأوربي في مقدمتهم (ريموند وليامز*) وفي منتصف الثمانينيات، أستعار (جونثان دوليمور**)، (وآلان سنفليد***) المصطلح وأعدا تعريفُه وطبقاه في دراستهما لدراما عصر النهضة[١].

والمادية الثقافية تؤكد على ضرورة التفاعل بين الإبداعات الثقافية، مثل الأدب وبين سياقاتها التأريخية، بما فيه العناصر الاجتماعية والسياسية، ومنذ تحديد ريموند وليامز معالم حقل المادية الثقافية، تحديدًا أوليًا في عام (١٩٨٢)، ثم أصبحت أكثر تحديدًا في مجموعة من المقالات التي حررها جوناثان دوليمور وآلان سينفيلد تحت عنوان (شكسبير السياسي: مقالات جديدة في المادية الثقافية ١٩٨٥)، وقد أسهم

---

*. ريموند هنري وليامز منظر ماركسي ويلزي، وأكاديمي، وروائي، وناقد. وهو شخصية مؤثرة داخل اليسار الجديد وفي الثقافة. ساهمت كتاباته عن السياسة والثقافة والإعلام الجماهيري والأدب مساهمة كبيرة في النقد الماركسي للثقافة والفنون.

**. جوناثان دوليمور (١٩٤٨)،منظري المجتمع الإنجليزي في مجالات أدب والدراسات الجنسانية، ونظرية المثليين، والفن، والرقابة، وتاريخ الأفكار، ودراسات الموت، والانحطاط، والنظرية الثقافية.

***. آلان سينفيلد (١٩٤١-٢٠١٧) استاذ اللغة بجامعة ساسكس ومنظراً في مجالات شكسبير والنظرية الجنسية، والنظرية الثقافية، والمسرح الحديث، وقد نشر على نطاق واسع في مجال الأدب الإنجليزي والمسرح، وكان نشطًا في تطوير دراسات المثليين والمثليات في الأوساط الأكاديمية وهو مؤلف كتاب "السياسة الثقافية.

[١]. د.حفناوي رشيد بعلي، مسارات في النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب عصر النهضة، دروب للنشر، عمان ط١، ٢٠١١، ص١٥٨.

وليامز في هذه المجموعة بكلمة ختامية رصينة، وقد حدد الباحثان دواعي ظهور المادية الثقافية في بريطانيا في السبعينيات من تصدع الإجماع الذي ساد الحياة السياسية البريطانية خلال السبعينيات، وما صاحبه من إنهيار الفرضيات التقليدية عن قيم النقد الأدبي وأهدافه، وما فعلته الضغوط القوية المتعددة داخل الماركسية والبنيوية والنسوية والتحليل النفسي وما بعد البنيوية وما أثارته تلك كيانات لغوية وقوى إيديولوجية في مجتمعنا، ثم قدم الباحثان تعرفهما للمادية الثقافية المتمثل في تقويض السياق التاريخي لما ينسب تقليديًا إلى النص الأدبي من دلالة قائمة بذاتها مستقلة عن الواقع متعالية عليه، إذ يسع ذلك السياق التاريخي بإستعادة تواريخ النص، والماديون الثقافيون ماركسيون من هذه الناحية، أي من حيث الاهتمام بنمط الإنتاج باعتباره مركزًا حقيقيًا للتشكيل الاجتماعي وتكوين الخطاب، وهذا استلزم من المادية الثقافية تحولاً كبيرًا بعيدًا عن قضايا القيمة الجمالية التقليدية واهتمامها بأشكال الاستهلاك كالذائقة باتجاه التأكيد على قضايا الممارسة ومواقع الإنتاج، ان موقف المادية الثقافية الرافض لفلسفة الماهوية* في كتاباته، اما (سنفليد) فينقلنا الى احدى النتائج، هي حاجة الناقد الجديد، ناقد المادية الثقافية الى الاتصال بالمعارف المختلفة، ان المادية الثقافية تتطلب انماطًا من المعرفة، لا يمتلكها النقد الادبي، او حتى يعرف كيف يكتشفها، نماذج جرى تطويرها في الواقع، ثم قدم الباحثان تعرفهما للمادية الثقافية المتمثل في تقويض السياق التاريخي لما ينسب تقليديًا إلى النص الأدبي من دلالة قائمة بذاتها مستقلة عن الواقع متعالية عليه، إذ يسمح ذلك السياق التاريخي باستعادة تواريخ النص[٢].

---

*. الماهوية، هي وجهة النظر القائلة إن لكل كينونة مجموعة من السمات الضرورية لهويتها ووظيفتها، افترضت المثالية الأفلاطونية –بوصفها جزءًا من الفكر الغربي المبكر– أن لجميع الأشياء «ماهية»، أي «فكرة» أو «صورة».

[٢]. ينظر موسوعة كمريدج في النقد الأدبي –القرن العشرون، المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية–، تحرير: ك.نوريس،ج. أوزبورن، مراجعة واشراف: رضوى عاشور، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط ١، ٢٠٠٥،ص٧٩.

تُعد النظرية الأدبية اللبّ الأساس في تلك التشكيلة اللافتة من الأنثروبولوجيا الشعبية اليسارية التي تُدْعى (الدراسات الثقافية) فتحتفظ بإندفاع الماركسية السياسي الراديكالي قديم الطراز، وتتوسّع به من القضايا الطبقية إلى القضايا العرقية والنسوية، لكنها تُسْقِط العلم والنظرية الاقتصادية، فتكفّ قيمها الراديكالية عن أن تكون قائمًة على أيّة نظرية عامة في التاريخ الإنساني، كتلك التي تقوم عليها الماركسية وتتمثّل اهتمامات هذه المادية الثقافية الأدبية في البنية الفوقية ونظريتها في القيمة هي نظرية نسبية ويسعدها أن تتوافق مع تلك الأنماط الشكلانية الصرف من الراديكالية الفكرية مثل ما بعد البنيوية، وتركّز على الصراع الثقافي لا الاقتصادي ولا ترى إلى الثقافة الفنية على أنها شيء ذو أهمية جوهرية بالنسبة إلى الإنسانية عمومًا بل على أنها في جوهرها موقعٌ –بل الموقع الأساسي– من مواقع الصراع السياسي هكذا تنشطر الماركسية، مع اختراع المادية الثقافية، إلى دولتين وريثتين أضعف من الدولة الأصل بكثير[٣].

والمادية الثقافية هي إطار نظري وطريقة بحث لفحص العلاقات بين الجوانب المادية والاقتصادية للإنتاج وبناء المجتمع، والتنظيم الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية، والقيم والمعتقدات والرؤى العالمية التي تغلب على هذا المجتمع، إنها متجذرة في النظرية الماركسية وهي شائعة في الأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، ومجال الدراسات الثقافية، كما أكد وليامز أن الثقافة نفسها هي عملية إنتاجية، بمعنى إنها مسؤولة عن صنع أشياء غير ملموسة موجودة في المجتمع، مثل الأفكار والإفتراضات والعلاقات الاجتماعية، إن نظرية المادية الثقافية التي طورها تعتقد أن الثقافة كعملية إنتاجية هي جزء من العملية الأكبر لكيفية صنع نظام الطبقات وإعادة تشكيله، وهو مرتبط بالتفاوتات الطبقية القائمة على المجتمع، ووفقًا للمادة الثقافية، تلعب الثقافة والمنتجات الثقافية هذه الأدوار من خلال ترويج وتبرير قيم معينة وافتراضات ورؤى عالمية داخل التيار الرئيسي وتهميش الآخرين الذين لا يتناسبون

---

[٣]. ليونارد جاكسون، شكلان من المادية الثقافية، المادية في الانثروبولوجيا وفي الدراسات الثقافية، ترجمة، ثائر ديب، مجلة تبيّن للدراسات الفكرية والثقافية، العدد،١، ٢٠١٢، ص١٣٥.

مع القوالب السائدة، والمادية الثقافية كطريقة بحث يمكنها أن تنتج فهمًا نقديًا للقيم والمعتقدات والرؤى العالمية خلال الدراسة عن كثب للمنتجات الثقافية، ويمكننا أيضًا أن نميز كيفية ربطها بالهيكل الاجتماعي الأكبر والاتجاهات الاجتماعية في الإطار الذي وضعه ويليامز[٤].

ثانيًا: الأساسات الانثروبولوجية (الاكاديمية) للمادية الثقافية

يُعد مارفن هاريس* (Marvin Harris) واحدًا من الذين أعطوا للأنثروبولوجيا قوة وحيوية في السنوات الأخيرة وذلك في دفاعه المستميت عن أهمية المنهج

---

(4).Thought co, Social sciences, basic theoretical concepts, by, Ashley Crossman,2019.

*. مارفن هاريس، (١٨ أغسطس ١٩٢٧–٢٥ أكتوبر ٢٠٠١) عالمًا أنثروبولوجيًا أمريكيًا اشتهر بمساهمته في نظريات التطور الثقافي، ولد هاريس في بروكلين، نيويورك، من عائلة فقيرة يهودية الأصل، حصل مارفن هاريس على درجة البكالوريوس في الأنثروبولوجيا عام ١٩٤٨، التحق بجامعة كولومبيا، حيث حصل على درجة الدكتوراه، في عام ١٩٥٣، مكث في كولومبيا من عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٨٠، قام بالتدريس والعمل كرئيس لقسم الأنثروبولوجيا، كان أستاذًا مشاركًا للأنثروبولوجيا من ١٩٥٩ إلى ١٩٦٣، وأستاذًا من ١٩٦٣ إلى ١٩٨٠، قام هاريس بعمل ميداني في موزمبيق في ١٩٥٦–١٩٥٧ ، حيث كتب عن ظروف المعيشة في ظل الحكم البرتغالي، أجرى دراسة ميدانية أخرى في البرازيل، ركزت على العلاقات بين الأعراق، في عام ١٩٦٨، شارك هاريس في تظاهرات كولومبيا، إذ كان هاريس من القلائل بين قادة الكلية الذين انحازوا إلى الطلاب عندما تعرضوا للتهديد والضرب من قبل الشرطة، وكان هاريس إلى جانب هيئة التدريس المؤيدة للطلاب، وكتب عن تلك الأحداث في مقال نُشر في The Nation ، انتقل هاريس إلى جامعة فلوريدا عام ١٩٨٠ كأستاذ فخري لبحوث الأنثروبولوجيا، كما شغل منصب رئيس قسم الأنثروبولوجيا العامة في الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية، واصل هاريس التدريس والنشر، وقام بتأليف ما مجموعه ١٧ كتابًا.

من أهم أعمالُه:

أنماط سباق في الأمريكتين ١٩٦٤، صعود نظرية الأنثروبولوجية: تاريخ نظريات الثقافة ١٩٦٨ ، ثقافة الناس، والطبيعة: مدخل إلى علم الإنسان عامة ١٩٧١، الأبقار والخنازير، الحروب، والساحرات: ألغاز الثقافة، ١٩٧٤، أكلة لحوم البشر والملوك: أصول الثقافات، ١٩٧٧، المادية

الأمبريقي وضرورة الاهتمام بالإجراءات الصادقة والدقيقة التي قدمتها العلوم الطبيعية في مجال بحث وفهم الظاهرة الإنسانية، وفي عام (١٩٦٠) كان هاريس قريبًا من منظوره من ماركس ولكنه يهتم بالنواحي البيئية والايكولوجية وعلاقتها بالثقافة او ما يطلق عليه النسق البيئي (Ecosystem) ثم تطورت لديه قناعات بأهمية إعادة تجديد الماركسية في مجال الظواهر السوسيوثقافية، كان هذا عام ١٩٦٨ حين أصدر كتابه صعود النظرية الانثروبولوجية[٥].

وفي الكتاب يقدم تعبير المادية الثقافية (Cultural Materialism) على إنها حل أمثل في تجديد النظرية الانثروبولوجية، وفي عام (١٩٧٩) صدرت الطبعة الأولى من كتابه حاملاً عنوان نظريته[٦].

المادية الثقافية في نظره هي استراتيجية غير هيجيلية، لها إفتراضات إبستمولوجيا تضرب بجذورها في التراث الفلسفي لديفيد هيوم والامبريقية البريطانية وافتراضات دارون وسبنسر و مورجان وتايلور وبواز وبدايات الانثروبولوجيا كنظام اكاديمي، والمادية الثقافية ليست احاديًا (Monistic) او ميكانيكيًا في الجدل، انها تتم بالتفاعل المنظم بين الفكر والسلوك والصراعات بالإضافة الى صور التلاؤم (المستمر وغير المستمر) والتغير التدريجي والتغير الثوري، والتكيف وعدم التكيف،

الثقافية: النضال من أجل علم الثقافة، ١٩٧٩، لماذا لا شيء يعمل: الأنثروبولوجيا من الحياة اليومية ١٩٨١ ، الأنثروبولوجيا الثقافية ١٩٨٣، جيدة للأكل: الألغاز الأغذية والثقافة، ١٩٨٥، لدينا نوع: من نحن، من أين أتينا، وإلى أين نحن ذاهبون، ١٩٨٩، نظريات الثقافة في ما بعد الحداثة تايمز، ١٩٩٨، العلوم المادية، ودراسة الثقافة، ١٩٩٥، التصنيع أمريكا: فهم المجتمع المعاصر من خلال تحليل السوسيولوجي الكلاسيكي، ١٩٩٩، توفي مارفن هاريس في جينسفيل بولاية فلوريدا عن عمر يناهز ٧٤ عامًا.

(5). Marvin Harris ,the Rise of Anthropological theory .T.Y. Crowell .New YORK,1988.

(6). Marvin Harris, Cultural Materialism: The Struggle for a Science of ,Cultural Random House, New York, 1979.p.67

والوظيفة والخلل الوظيفي، وفيما يتعلق بالجانب الثقافي، فأن كلمة ثقافة تأتي في المقدمة لأن الأسباب المادية للظواهر السوسيو–ثقافية تختلف عن تلك التي تتعلق بالمحددات العضوية او غير العضوية، ومهمة المادية الثقافية تكوين علم للأنسان ككل يضم المجتمع الإنساني برمته[٧].

والمعيار الذي يستند اليه هاريس هو التأكيد على الأهمية الأمبريقية كأساس منهجي في المادية الثقافية، وإذا كانت بعض الإتجاهات الانثروبولوجية تختلف فيما بينها حول رؤيتها التصورية للواقع فهذا يرجع الى ان الأساس الإبستمولوجي والنظري للإحتكام الى الواقع متباين من اتجاه لآخر، لهذا السبب يسعى هاريس الى تحديد الأسس الابستمولوجية والنظرية التي تنهض عليها المادية الثقافية بوصفها استراتيجية علمية محددة.

تُعد المادية الثقافية في الأنثروبولوجيا مختلفة تمامًا وهي ترمي إلى إقامة تفسير علمي، وتحافظ على الواقعية الفلسفية وعلى المادية التي تميّز العلوم الطبيعية، كما تهدف إلى تفسير ذلك المدى الشاسع من الممارسات الثقافية الإنسانية (التي لا بد من حيث المبدأ أن تشتمل على الفنون)، والتعاقب التاريخي لأشكال مختلفة من المجتمع، على أساس المتغيرات الاقتصادية الأساسية وهي تتحدّر من الماركسية الكلاسيكية وتشبهها لكنها لا تستخدم الديالكتيك، وتلتزم بتفسير وقائع المجتمعات الإنسانية وليس بإجتراح تغييرات ثورية في هذه المجتمعات، وهي تعتمد على سلسلة من المتغيرات التفسيرية أوسع من السلسلة التي اعتمدت عليها الماركسية التي تضمّ الموارد الطبيعية، ومستويات السكّان من حيث التكنولوجيا المتاحة ومستويات الحريرات والبروتينات في أنماط الموارد الغذائي المختلفة، فضلاً عما يقتضيه تأمين ذلك من الطاقة إلخ، وهذا ما يجعل منها الأساس العلمي الواضح لتنظير المشكلات الإيكولوجية، غير أنها يمكن أن تخلص إلى نتيجة عملية مفادها

(7). Marvin Harris, Cultural Materialism ,p.p.68

ضرورة الحفاظ على الأبقار المقدّسة في الهند، كما تخلص إلى ضرورة قيام ثورة اجتماعية هناك والمدافع الأساسي عن المادية الثقافية هو مارفن هاريس[٨].

وقد عَرّف مارفن هاريس (المادية الثقافية) بإنها طريقة بحث تجعل الاهتمام الرئيسي للأنثربولوجيا ينصب حول تقديم تفسيرات لأوجه التشابه والاختلاف بين الاتجاهات الفكرية والسلوكية للمجتمعات الإنسانية، ويرجـع سبب اختلاف المظاهر الروحية بين المجتمعات لإختلاف التأثيرات البيئية التي تؤثر على طريقة مواجهة الناس لمشكلة إشباع متطلباتهم الرئيسية في حدود إمكانات بيئتهم[٩].

١. الإستراتيجيات المادية في تفسير الأنظمة الثقافية

ولتطبيق المادية الثقافية عرض مارفن هاريس، مثالاً يوضح فيه أن تحريم الهندوس أكل لحم البقر له مدلول بالنسبة للبيئة المحلية، لأن البقر هام من عدة أوجه، فالحرمانية الدينية لها معنى مادي معقول لأنها تتضمن الحفاظ على الموارد التي تقدمها الأبقار كالسماد واللبن والعمالة، فالروث يستخدم كمصدر طاقة وكسماد، كما أن (٤٦.٧٪) تقريباً من منتجات الهند للألبان تأتي من البقر، وبهذه الدراسة يقدم هاريس برهانًا قويًا ضد الإدعاء بأن هذه الحيوانات ليست لها قيمة اقتصادية[١٠].

والمادية الثقافية إستراتيجية بحث وليست نظرية مفردة وسواءٌ كان الماديّ الثقافيّ بإزاء وصف إثنوغرافي لثقافةٍ كاملةٍ من الثقافات مثل ثقافة (اليانومامي*) أو

---

[٨] . ليونارد جاكسون، شكلان من المادية الثقافية، مصدر سابق، ص١٣٨.

[٩] . ايمان علي مصطفى الخولي، الايكولوجية الثقافية–اسلوب منهجي، بحث في الانثروبولوجيا البيئية وتطبيقاتها، جامعة بني سويف، قسم علم الاجتماع،٢٠٠٧، ص١١، رسالة ماجستير غير منشورة.

[١٠]. ايمان علي مصطفى الخولي، الايكولوجية الثقافية–اسلوب منهجي، مصدر سابق، ص١٢.

*. يانومامي (Yanomamo): هي مجموعة من السكان الأصليين في أمريكا الجنوبية الذين يعيشون في الغابات النائية في حوض نهر أورينوكو في جنوب فنزويلا والغابات المطيرة في حوض الأمازون في شمال البرازيل، تشير التقديرات إلى أن عدد سكان يانومامي البالغ عددهم

سمةٍ خاصة تميّز عدّة ثقافات مثل التابو المفروض على أكل لحم الخنزير في الشرق الأوسط، فإنّه سوف يتفحّص ما تشتمل عليه الطقوس المعنيّة من تكاليف ومنافع مادية، ويقيسها من حيث عوامل مثل الوارد الحروري والوارد البروتيني قياسًا بالجهد المبذول، في كثافات سكانية شتّى ومستويات مختلفة للموارد الطبيعية ويشتمل هذا التحليل على ما يدعوه الماركسيون قوى الإنتاج وعلاقاته، لكنه يمضي أبعد من ذلك؛ فمن نقاط الضعف الشالّة في الماركسية أنها لم تبد قطّ اهتمامًا كافيًا بكثافة السكّان أو بالإيكولوجيا.

وفي إنكارها استقلال الثقافة، تنكر هذه الإستراتيجية واحدًا من المبادئ العزيزة على معظم مدارس الأنثروبولوجيا الثقافية؛ وتكون أمام خطر دَفْعِهَا كما يفعل هاريس في بعض الأحيان نحو حتمية اقتصادية كاملة غير أنّه ليس من الضروري أن يحصل ذلك، كما رأينا لدى مناقشة الماركسية ذاتها ويمكننا أن نواصل القول إنّ الثقافات الإنسانية هي إستجابات إنسانية خلاّقة للشروط المادية، وإنّه من الممكن على الدوام قيام استجابات مختلفة كثيرة، في الوقت الذي نقبل أنّ للعوامل المادية صدارةً تفسيرية، وتنظر المادية الثقافية إلى الحاجات المادية الإنسانية والموارد المتاحة والتقنية في مجتمعٍ ما –سواء كانت هذه غابات عذراء وفؤوسًا حجرية، أم مناجم فحم ومحركات بخارية– على أنها المتغيرات التفسيرية الأوليّة؛ في حين تنظر إلى البنية السياسية، وأساليب الحرب، والمعتقدات الدينية والأشكال الاقتصادية إلخ، على أنها العناصر التي ينبغي تفسيرها وتنظر إلى الاقتصاد على أنّه المستوى الذي يتوسّط بين هذين الاثنين وهي بهذا تحافظ على الأجزاء التي يمكن الدفاع عنها في الماركسية.

٣٥٠٠٠ شخص يعيشون ضمن هذا النطاق، وهي تتألف من أربع قبائل أصلية متميزة، بما في ذلك (Ninam و Yanomam و Sanema و Yanomamo)، وتحتل كل منها منطقة مختلفة وتتحدث لغة مختلفة.

ومن الأمثلة البسيطة على عمل هذه الإستراتيجية تناول هاريس لوظائف البقرة المقدّسة اذ يُبجل الهندوس الابقار لأنها رمز كل شيء حيّ، فكما مريم بالنسبة الى المسيحيين هي (أمّ الله)، كذلك البقرة بالنسبة الى الهندوسي هي أمّ الحياة، ولن يكون هناك أشد رجساً للهندوسي من قتل بقرة [١١].

وذبح البقرات المقدّسة جميعها، يعني في الواقع جعل المجتمع أقلّ اقتدارًا من حيث الطاقة، ويعني نقل الثروة من الفلاحين الفقراء الذين لا يملكون سوى بقرة واحدة تشرد وتعيش على الفضلات، إلى الفلاحين الأغنياء الذين يملكون قطعانًا كاملة تبقى في المرعى والحال أنّ البقرة في الهند لا تُعامل بأيّ حنان خاص بل تعيش حياةً بالغة القسوة، و تحلب حتى آخر قطرة، والبقرة كذلك هي منتجةُ حيوانات الجر الثيران والتابو المفروض على قتلها، لها وظيفة اقتصادية ولقد عرفت الهند المجاعات وإغراء قتل بقرة في مجاعة هو إغراء طاغٍ لكنه يعني أن تقتل رأسمالك فلا تعود قادرًا عندئذٍ على إنتاج الثيران التي تعمل عليها في أرضك ومثل هذه الظروف على وجه الدقّة، وعلى مرّ القرون، هي الظروف التي تطوّر فيها المجتمعات التابوات الدينية فالبشر يحتاجون إلى ما يقويّهم في مواجهة الإغراءات قصيرة الأمد التي تفضي إلى خراب اقتصادي مديد وهذه النقطة الأخيرة تحتاج أن نلحّ عليها فهي مبدأ عام يفسّر العقلانية الأساسية طويلة الأمد التي غالبًا ما نجدها في مبادئ دينية لا عقلانية في الظاهر [١٢].

٢.الأسس (الابستمولوجية*) للمادية الثقافية

---

[١١]. مارفن هاريس، مقدسات ومحرمات وحروب الغاز الثقافة، ترجمة، احمد م. احمد، المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات، لبنان، الطبعة الاولى،٢٠١٧، ص١٧.

[١٢]. ليونارد جاكسون، شكلان من المادية الثقافية، مصدر سابق، ص١٤٠.

*.الإبستيمولوجية (Epistemology): مصطلح ذو أصل إغريقي مؤلف من كلمتين (epistemo) وتعني المعرفة و logos وتعني علم ويعني المصطلح حرفياً علم المعرفة أو علم العلم، وكان أول من وضع هذا المصطلح الفيلسوف الأسكتلندي جيمس فريدريك فيرييه (١٨٠٨-١٨٦٤) حين ألف كتابه مبادئ الميتافيزيقا. إذ قسم الفلسفة فيه إلى قسمين: أنطولوجية

المشكلة التي يلمسها هاريس في الظاهرة الإنسانية تتمثل في طبيعة الذات التي هي كائنات بشرية تفكر وتسلك، وهي موضوعات للدراسة ايضًا وليس ثمة بُعد أشق في تمييزه من معالجة العلاقة بين ما يقول به الناس ويفكرون كذوات، وما يقولونه ويفكرونه ويفعلونه بوصفهم موضوعات للبحث العلمي[١٣].

لذا تسعى المادية الثقافية لتأسيس إبستمولوجية واضحة لبحث الظواهر الإنسانية بحيث لا يتعارض المعنى الذي يتداوله الناس والمعنى الذي تتحقق منه المقولات العلمية، وتنطلق هذه الإبستمولوجية من حل المأزق الذي تعرض له كل من ماركس وانجلز في الأيديولوجية الألمانية حين زكزا على الشروط المادية التي تحدد الوجود الإنساني دون ان يحللا هوية الافراد، كما تتبدى في خيالاتهم او خيالات الشعوب الأخرى، بل ان كلاً منهما درس حقيقة وجود الافراد على ما هم عليه، اما بالنسبة للماديين الثقافيين فإن مشكلة ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي مرهونة تمامًا بالتعميمات الإبستومولوجية للمنهج العلمي، والمادية الثقافية لا تتأسس على فكرة المضمون غير الحقيقي للفكر، وبالتالي ترفض الخوض في مسألة ما اذا كان الكيان الفكري ام الكيان المادي بعدًا اساسيًا للواقع، فهذه ليست مشكلة إبستمولوجية بالمعنى الدقيق للكلمة وإنما هي مشكلة انطولوجية، أي انها خارج

وإبستيمولوجية، أما المعنى المعاصر لمصطلح إبستيمولوجية في الفلسفة العربية والفرنسية فهو: الدراسة النقدية للمعرفة العلمية، ومع أن مفهوم «العلم» حاضر في تاريخ الفلسفة، ولاسيما عند أفلاطون وأرسطو وديكارت ولوك وليبنتز، فإن الإبستيمولوجية بوصفها مبحثاً مستقلاً موضوعه المعرفة العلمية، لم تنشأ إلا في مطلع القرن العشرين حين اتجهت إلى تحديد الأسس التي يرتكز عليها العلم، والخطوات التي يتألف منها، وإلى نقد العلوم والعودة إلى مبادئها العميقة. وذلك بتأثير التقدم السريع للعلم، والاتجاه نحو التخصص المتزايد، وما ولدّه ذلك من تغيّر في بنية منظومة العلوم، ومن صعوبات وإشكالات ذات طبيعة نظرية، والإبستيمولوجية بوصفها الدراسة النقدية للعلم تختلف عن نظرية المعرفة. كما في الموسوعة العربية، الفلسفة وعلم الاجتماع والعقائد، المجلد الأول، ص ٧٨.

(١٣). السعيد صابر المصري، الانثروبولوجيا النقدية والتحولات النظرية والمنهجية، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم الاجتماع،١٩٩٢، رسالة ماجستير غير منشورة، ص١٥٧.

البحث العلمي، وما تهتم به المادية الثقافية هو الفصل بين الكيانات المادية والأفكار، فالتفكير حول الأشياء والاحداث يبدو منفصلاً عن الأشياء والاحداث والمشكلة التي تحتاج الى حل هي كيف يقوم الباحث بمعرفة كلا المجالين منفصلًا على حدة، وحلاً لهذه المشكلة ينبغي التمييز بين ما اسماه مارفن هاريس الاحداث العقلية (Etics Events)[١٤].

ولكن ما المقصود بهذا النوع من التمييزات ؟.

فيما يتعلق بمجالات العقل ومجالات السلوك، يتأسس منهج المادية الثقافية على أهمية الدراسة العلمية للحياة الإنسانية في ضرورة التمييز بين تلك الأنشطة التي تكون مجرى السلوك الإنساني وتلك التي تكون مجرى الأفكار والمشاعر التي نخبرها نحن البشر داخل اذهاننا، هذا التمييز الذي يحتاج الى تناول علمي متوازن بين الاحداث العقلية والاحداث السلوكية يقطع نصف الطريق نحو حل مأزق ماركس وانجلز، ومن الممكن-حسب هاريس-التمييز بين منظورين مختلفين في النظر الى أفكار وسلوك المبحوثين.

اولاً: من منظور المبحوثين أنفسهم **ثانيًا:** من الملاحظين (Observers) وفي كِلا الحالتين يبدو ممكنًا وصف مجالي التفكير والسلوك، ولكن في المثال الأول نجد ان المُلاحِظين يقومون بتوظيف المفهومات وتمييزات المعنى والتي تتناسب مع المبحوثين، وهنا يتوفر لدينا معيار مدى التطابق الامبريقي ومدى إمكانية الاختبار [١٥]، وهذا هو المقصود بالإيتك(Etic).

وهنا ينبغي التوقف قليلاً عند هذه الثنائية التي اخذها مارفن هاريس من التحليلات اللغوية طبقًا للمعجم اللغوي[١٦].

---

(14). Marvin Harris, Cultural Materialism. p, p.30 -31 .

[15] .Marvin Harris, Cultural Materialism,. p31.

(16). Brenard, Cole, Language Dictionary, Vintage Book, New York,1985. PP 60.

الخاتمة

اتجه هذا البحث مع أهم الآراء والأفكار والتصورات التي كانت سببًا أو عاملًا أساسيًا في تبلور توجه المادية الثقافية كإتجاه فكري يركز على قضية الإنتاج الأساسي وتوسع من تحليلها للقوة الديناميكية، وعلاقاتها المتشابكة، كما تشرح أوجه التشابه والإختلاف الثقافي وكذلك النماذج للتغيير الثقافي في إطار مجتمعي، التي تُعد إستراتيجية البحث العلمي إذ تعطي الأولوية للعمليات المادية والسلوكية في شرح تطور النظم الاجتماعية الثقافية البشرية.